

على الذات والجسد والأرض (الرحم)، فيصبح الارتباط بالوطن هو القيمة المطلقة العظمى المتجاوزة للأفراد، فيرمز إليه بالأرض التي يلتصق بها الفرد التصاقاً كاملاً فيفقد هويته فيها، والتي عادةً ما تأخذ شكل أنثى ينشأ الفرد من ترابها، فالأرض هي الرحم الكوني مصدر الحياة. وبدلاً من «الجنس» بمعنى «سكس sex»، يظهر «الجنس» بمعنى «عرق» race. ورغم اختلاف المعنى والمدلول، إلا أن كليهما يشير إلى الأصول المادية للإنسان، وإلى أن هويته ذات أصل بيولوجي، وإلى مرجعيته المادية الذاتية (ومع هذا، يلاحظ أن الجنس بمعنى «عرق» يتراجع في مرحلة السيولة التالية، ويظهر الجنس بمعنى «سكس sex» مرة أخرى باعتباره المرجعية النهائية الكامنة). ويلاحظ أن الاهتمام بالأصول (العرقية والحضارية) في الفكر العلماني الحديث تعبير عن النزعة الجنينية والرغبة في العودة إلى الرحم.

١٠ - كما تظهر النزعة الجنينية الحلولية الكمونية (والرغبة في الانسحاب من العالم التاريخي المركب بمنحنياته الخاصة الكثيرة، ومن عبء الهوية والمقدرة على التجاوز) في الإيمان بالحتمية، التي تعني أن الأمور تحدث لأنها تحدث (تماماً مثل الانتماء العرقي للإنسان، ذلك الانتماء ذو الطابع البيولوجي والحتميات البيولوجية المختلفة)، وفي الإيمان بالنسبية، التي تجعل العالم واحدياً متساوية فيه كل الأمور. والنسبية، مثل الحتمية، تُغرق الهوية، وتريح الإنسان من عبء الاختيار الخُلقي، ومن ضرورة الإدراك. ويتم هذا من خلال عمليات الترشيد في إطار النماذج الواحدية المادية التي تعيد صياغة تفاصيل البيئة الاجتماعية والمادية والإنسانية، لتتفق ونماذج رشيدة مادية تقوم بتنميط الواقع وكأنه مادة محض. وقل الشيء نفسه عن الإيقاع السريع للعصر الحديث، فهو إيقاع لايسمح بالاختيار. وهذا الإيقاع هو سبب ونتيجة، في آن، لتنميط العالم وجعل مكوناته تشبه قطع الغيار، وجوهر قطعة الغيار أنها لا هوية لها، لذا فيمكن أن تحل محلها قطعة أخرى. وعلى هذا، فإن العالم الحديث الأملس يشبه الرحم الصناعية الضخمة التي تهرس الذات بطريقة لذيدة ممتعة.